الأستاذ بيرم كمال

مقياس المجتمع الجزائري وفعالياته
المحاضرة 6
الفئات الاجتماعية تكملة
فئة الأندلسيون والرعايا الأجانب

شكلت فئة الاندلسيون إضافة اجتماعية وحضارية للجزائر العثمانية منذ القرن السادس عشر عقب حركة الاسترداد الاسبانية.حيث شهدت الجزائر هجرات كثيفة للأندلسيين، هؤلاء الفارين من تنكيل الإسبان وتعذيبهم لهم، حيث قتلوا الكثير منهم وأحرقوهم وهم أحياء، وفي هذه الأثناء استغاثت البقية الباقية منهم بخير الدين لإنقاذهم ونقلهم إلى السواحل المغربية ، فانجدهم ، و ترك لهم خير الدين حرية اختيار المناطق الصالحة لسكناهم فنزلوا بالعاصمة، سهل متيجة، تدلس (دلس) تلمسان، وهران، مستغانم، شرشال.
معظم الاندلسيون جاؤوا من الجزر الخضراء، ومايورقة ومينورقة واليابسة، هؤلاء المهاجرين كانوا من طبقات تختلف من حيث الثروة والثقافة والجاه ففيهم أبناء الشعب البسطاء، وأحفاد الملوك الوجهاء، وفيهم أصحاب الصنائع وأصحاب القلم. الأندلسيون كانوا منذ البداية عامل إضافي في تدعيم الحكم العثماني بالجزائر،وقدموا يد المساعدة والعون للأخوين عرُّوج وخير الدين بربروس في صراعهم مع الأسبان حيث كانا الأخوان سببًا بعد الله في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الاسبان ونقلهم الى سواحل المغرب الاسلامي.
اتخذ حكام الجزائر منذ عهد خير الدين من الأندلسيين جنودًا لحراسة أبراج مدينة الجزائر وألَّفوا منهم فرقًا عسكرية شاركت في توطيد الحكم العثماني في الأقاليم الداخلية للجزائر، تذكر بعض الكتابات مشاركة 500 أندلسي من أهالي غرناطة وأراغون وبلنسية في الحملة التي شنها خير الدين للقضاء على حميد العيد حليف الأسبان المستبد بمدينة تنس ونواحيها عام 1517م كما كلفت جماعات الأندلسيين بحراسة مدينة المدية بعد أن تمكن خير الدين من تنحية محمد بن العابد وإلحاقها بالسلطة المركزية بالجزائر، كما قضت فرقة من الرماة(500) على حاكم مليانة المدعو حسن أيام حسن بن خير الدين.
و الملاحظ ان الاندلسيون شكلوا دعامة إضافية في الدفاع عن ارض الإسلام بالمغرب بعد سقوطها بالاندلس من خلال تزايد عدد المجندين الأندلسيين المدافعين عن الجزائر المحروسة ما يقارب 6000 وبلغ شهداؤهم أيام حملة الصليبي شارل كانت حوالي 5000 شهيدًا من مجموع 15000 رجل المقدرين للجيش والقوة العسكرية الجزائرية.
كما قدموا اداو هامة في ترقية الأنشطة الاقتصادية بالجزائر العثمانية ،فقد اشتغلوا في فحص الجزائر في الأعمال الزراعية والتجارية والحرفية وتفوقوا في ضروب الصناعات التقليدية، وكان أغلبهم بباب الواد وباب عزُّون من صناع أهل الأندلس، وأهم الصناعات التي عرف بها الأندلسيون صناعة النسيج بمختلف أصنافها" أقمشة الكتان والقطن والحرير والمحمل (القطيفة)"،وقد كانت معامل الأقمشة في الربع الأول من القرن السادس عشر تضم ما لا يقل عن 3000 عامل كما لا تقل هذه الصناعة أهمية عن بقية الصناعات والحرف الأخرى التي أتقن صناعتها الأندلسيون وهي التطريز(الشبيكة) والقلانس(الشاشية) وصناعة الحلي وتجهيز السفن وصناعة الأسلحة. كما نشطوا في العمل الزراعي في الساحل الشرقي

والغربي لمدينة الجزائر، حيث استصلحوا الأراضي وأخرجوا الماء ونظموا الرعي بفحص باب الوادي بواسطة مياه المعامل وفحوص باب عزون باستغلال مياه الحامة وواد خنيس ووادي الجر فبنوا الأحواض والصهاريج والسواقي والقنوات والحنايا وحفروا آبار الماء، وأنشأوا العيون، على أن أهم آثار الأندلسيين في مدينة الجزائر والبليدة والقليعة والمدية يتمثل في تلك التقنيات الزراعية المتطورة التي أدخلوها إلى هذه المدن من حيث آلات العمل الفلاحي وطرق التشذيب والتلقيح والغراسة واختيار التربة ونوعية المياه، مما أدَّى إلى تحسين أنواع عديدة من الأشجار المثمرة كالعنب، والبرتقال والزيتون والتفاح والجوز واللوز والمشمش ،وإدخال أنواع جديدة من الخضر والفواكه لم يألفها السكان قبلهم مثل:حب الملوك والقرنون والكراث والجلبان والملفوف والباذنجان والطماطم والبطاطس والفلفل وأنواع الزهور والقرمز. أصبحت الأعمال الحرفية والتجارية والزراعية التي جلبوها معهم من موطنهم الأصلي الأندلس بمختلف أقاليمه الى الجزائر متنفس جديد للسكان وتقدم نوعي أتاح لهم حياة جديدة في نسقها الاستهلاكي . وكان الأندلسيون المهجرون نحو الجزائر نواة تطور مدينة البليدة حيث قاموا باستصلاح فحص متيجة وأقاموا البساتين الغناء وأحواض الماء لسقي البساتين والحقول، فعرف سكان المنطقة سعة الرزق ورخاء المعيشة أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر . كانت لهذه الجماعة حظوة ومكانة لدى الحكام وتعامل خاص مع التجار الأوروبيين والمتعاملين اليهود الذين قدموا من الأندلس أو المدن الإيطالية وقد اشتهرت من هذه الطبقة الميسورة عدة أسر توارثت الثروة والنفوذ، واشتغل أفرادها بالتجارة والصناعة مثل ابن رامول، وابن هنِّي وابن النيقرو، وبرحال، وبوناتيرو، وبن تشيكو وبن الكبابطي، وبوضربة، مكَّن من المحافظة على التقاليد التربوية والتعليمية الأندلسية كما ضمن استمرار التقاليد العلمية والفقهية والأدبية، فأصبح للفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب مثالا يحتذى به في فن الترسيل والنثر الفني، كما تؤكده أعمال ابن عمار وابن حمادوش وابن ميمون،كما تولَّى الأندلسيون الوظائف الشرعية كالقضاء والإمامة والخطابة والنظر في الأحباس والأوقاف واشتهر منهم في مجال القضاء: ابن النيقرو وابن الأمين وابن عمار وابن الكبابطي، أما في ميدان الفن فكان اهتمامهم كبيرًا كادوا ينفردون بتنشيط الحياة الفنية، فقد نقلوا إلى فحص الجزائر ومدنه الشهيرة الموشحات والأزجال الأندلسية المعروفة عندنا(بالمالوف) وأدخلوا آلات موسيقية أندلسية، وحافظوا عليها مثل العود والرباب، والكامنجة، والصنوج، والطبيلة والطارو والدربوكة، وأحيوا المواليد والإخوانيات وقصائد المديح والغزل والتشبيب ووصف الطبيعة والرثاء، وشعر الحرب، ومن أشهر منظمي الموشحات أبو العباس أحمد بن عمار الأندلسي الجزائري متولي إفتاء المالكية سنة 1180هـ/1766م وصاحب الرحلة الشهيرة "نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب".في الجزائر، أسسوا مدنا وبلدات جديدة على غرار القُلَيْعَة والبُلَيْدَة، وعَمَّروا بلدات صغيرة شبه مهجورة جعلوها من أهم التجمعات الحضرية في البلاد، من بينها دَلَّسْ وتَنَسْ وشَرْشَالْ وقلعة بني راشد ونَدْرُومَة ومُسْتَغَانِمْ، ووسعوا، أو ساهموا مساهمة أساسية في توسيع، بلدات صغيرة لتصبح حواضر كبرى كمدينة الجزائر وبِجَايَة وعَنَّابَة وتِلِمْسَان ووَهْرَان ومْعَسْكَرْ وغيرها...

وبذلك فقد أسهموا في تنمية التجارة والصناعة معا، فقد شكلوا قوة تجارية هامة بالجزائر، فأظهروا كفاءات فذة، بفضل الأموال التي جلبوها معهم من الأندلس إلى جانب الخبرة في ميادين صناعة الأسلحة والنجارة والخياطة وصناعة الخزف .

كما ارتقت بوجودهم الجزائر في العمارة والطب والموسيقى، والزراعة، والتعليم، والخط والوراقة وهكذا أصبحوا يشكلون عنصرا بارزا ومؤثرا من السكان وطبعوا المدن الجزائرية، وخاصة الساحلية منها بطابعهم العمراني.
تولى بعضهم مناصب القضاء والإفتاء والكتابة وكانوا محل ثقة واحترام الحكام مثل: حمدان خوجة وبذلك شكل هؤلاء المهاجرين طبقة هامة في المجتمع الجزائري .

الأسرى المسيحيون والتجار.

اهتمت بدراسة أحوال الاسرى الأدبيات الأوروبية التي مثلت المنطلق الأساسي للدراسات العثمانية بالجزائر، كأعمال الأب " "دان" "Dan" و توماس شو" "و لـوجي دو تاسـي " * Tassy de Laugier"و فنتـور دي بـارادي Peyssonel **** Venture de ** " "André Jeanو بونافون جان بيار Paradis *** " بان"و صونال جون أندري Jean " Bonnafont Pierre،فعالجت قضايا متنوعةفي المجتمع الجزائري العثماني من زاويا مختلفة، خاصة قضـية الأسرى التي شغلت حيزاً كبيراً فيها؛ غير أن اغلبها أجمعت على أن الأسرى كانوا عبارة عن عبيد لخدمـة قراصنة بلاد المغرب الا أن الأسرى وضعوا في منزلة أسرى حرب أكثر من اعتبارهم عبيداً؛ لأن وضعيتهم كانت جيدة وتدفع لهم أجور بصفة منتظمة ، ولهم حقوق عدة ساعدتهم على مزاولة أنشطتهم على نطاق واسع رغم تداخل مفهوم العبودية (الرق) والأسر في الكتابات الأوروبية والجزائرية، فالمصادر التي بين أيدينا تستعمل مصـطلح الأرقـاء ويقصد منه الأسرى المسيحيين وليس رقيق إفريقيا رغم تواجد هذا العنصر الأخير ضـمن تركيبـة المجتمـع الجزائري العثماني، لكن كان له دور هامشي في معترك الحياة .
وهناك فئة الاسرى التي اقتصر وجودها على مدينة الجزائر ووهران وبدرجة أقل قسنطينة وعنابة وتلمسان ، كمـا أن أغلب أسرى هذه الأخيرة إسبان والذين اخذوا حيزاً كبيراً في المراسلات الجزائرية الاسبانية، حيـث كـانوا يوضعون في الزنزانة والتبرنة،وخلال القرن السابع عشر الميلادي خصصت دوراً تابعة للبايلك تعرف بسجون الرقيق) Bagnos) ومن بينها السجن الكبير عند باب عزون يعرف بالسجن الأسود لشدة الحراسة عليه خوفا من استغلالهم الفرص التي تقل فيها الحامية العسكرية خاصة إبان الهجمات الأوروبية التي يرى فيها الأسير فرصة للهرب، وبجـوار هـذا السجن يقع سجن الباسطار ويعرف أسراه بأسرى المخزن لانشغالهم بالمرافق العمومية لصـالح الأغـا وضـباط)الانكشارية.
اما عن أسواق بيع الأسرى وبحكم تركز نشاط النخاسة بمناطق الاستقبال كانت مدينة الجزائر اهم سوق لتجارتهم حيث أقيمت أسواق بيعهم بالقرب من المسجد الكبير بمحاذاة قصر الجنينة ويدعى هذا المكان بـ "الباذستان" وقبل البيع يتوجب فحصهم حسب السن والجنس والحالة الصحية والنسب ويكون الحاكم قد اخذ من بين ثمانية أسرى أسيراً واحداً لاستعماله الشخصي .أما طاقم السفينة المشارك في الأسر له نصيب منهم، أما الباقي فيباع في المزاد العلني يترأسه شخص مكلف من قبل الديوان يتقاضى عن كل رأس يباع رسوم معتبرة بعلم أعضاء الديوان .ويتواجد في مقدمة السوق الشباب، الذكور والإناث الذين لا يخفى حالهم أو مصيرهم على أحد فكـل من يشك أنه من عِلية قومه ويأمل الحصول على فدية كبيرة منه يستبعد عن البيع حتى وإن بيع فيبقى تواجـده بالمدينة ضروريا، كما أن فحص اليدين ضروري أيضا لمعرفة ما إذا كانت قوية أو خشنة وبيضـاء نظيفـة أو متسخة، لأنه متعلق بمكانة الأسير الاجتماعية في بلده، وتطرح عليه أسئلة تتعلق بالاسم والصـفات، وأحيانـا الإجابة تغاير الواقع للتقليل من

أهمية الشخص لنفسه كي يحرر بثمن زهيد، أما عملية البيع فتتم بعد صلاة الظهر ، حيث يبدأ الحارس باستعراض العبيد واحداً تلو الآخر إلى منصة الحاضرين مع إعطاء فكرة عن قيمة كل أسير ومميزاته وإمكانياته البدنية وعن المبلغ المحتمل لفدائه.

هناك تميز في بيع الاسرى فمن الاسرى من اشترته السلطة المحلية كي تستخدمهم في الأشغال العامة، وآخرون اقتناهم الخواص للخدمة في بيوتهم من تنظيف وجلب للمياه وحراسة الأطفال وهم يستخدمون في البيوت الريفية[2]، وهذا لكثرة الأسرى خاصة مع نشاط الحروب البحرية، حيث أخبر " هايدو " بأقصى عدد منهم وهو 25000 كانوا يستغلون عند أعيان الجزائر في البساتين.[3] وقد كثر عددهم بمدينة الجزائر على وجه الخصوص لكونها مركز عملية الجهاد البحري.[4]

والعادة التي جرت بمدينة الجزائر ان للأسير عند حلوله بالجزائر قميصا خشنا وصدرية من الملف الخشن وسروالا وقفطانا من نفس القماش يصل إلى الركبتين وشاشية حمراء وغطاء من الصوف، ويتناول الأسير في سجن الأسارى 4 خبزات من الخبز الذي يتناوله الجنود

ليقضوا ليلهم بسجن الأسارى المقدر عددهم أربعة، المنشأة لأجلهم عام 1607م، وذلك لضخامة عددهم الذي قدر خلال القرن 17م بحوالي ربع سكان الجزائر أي مليون نسمة.[1] هذا السجن كان مبني من ثلاثة طوابق و به ممر واسع يؤدي إلى غرف طويلة وضيقة هي مكان نوم الأسرى ينامون في إطارات مربعة يقع الواحد منها فوق الآخر في أربعة طوابق، أنهم نصف عراة وثيابهم معششة بالقمل والبراغيث ولا يملكون من غطاء سوى غطاء رث يلفون به أنفسهم شتاء، إذا استثنينا الذين عندهم المال فإنهم ينامون بالحانات أو صناديق صغيرة تعرف بغرف" بينن" طول الممر سابق الذكر مقابل دفع بعض المال للسلطة، هذه الحياة المأسوية ساهمت في انتشار الطاعون والأمراض والأوبئة بينهم وحصد أرواح عديد الأسرى، إضافة إلى احتواء السحن بداخله على صهريج يزود بمياه الأمطار.[2]

وهذه الحياة البائسة نفسها يعيشها الأسرى العاملون في المنافع العامة[3]، وبداخل سجون الأسارى نفسها كان يشاهد الباعة المتجولون من مختلف الفئات يتجولون في الليل، يعرضون بضاعتهم وهكذا يتعاقب الإسكافيون والخياطون والنجارون وصانعوا البراميل وبائعوا التجزئة وكل يعرض خدماته وبضائعه، وكلهم من السجناء وقد سمحت السلطات لبعض العبيد أن يمارسوا أعمالهم مقابل دفع دولار شهريا بالإضافة إلى الرشوة التي يقدمونها لحراس السجن.[4]

والأسير حسن السلوك يمكن أن يعتلي منصب كاتب في البحرية أو صاحب حانة أو كاتب سجن الأساري "باشكاتب سجن الأساري" فهو يتمتع بنفوذ وسلطة ويشترط أن يكون عارفا القراءة والكتابة وضبط وتعيين أماكن الأساري ولا يتولاها إلا بعد دفع ألف سكة جزائرية للدولة مع تمتعه بامتيازات.

أما الأسرى العاملون لدى الداي وكبار رجالات الدولة وعند أغنياء الترك والعرب أو القناصل أو في المستشفى فهم يرتدون أفخر الثياب ويأكلون أشهر الأطعمة ولا يعملون إلا قليلا وراتبهم جيد ويستطيع بذلك الأسير أن يجمع المال ليفتدى به نفسه، ولكن أغلبهم يضيعونه في المآكل الطيبة وحياة الفجور.[5] وقد فك أسر بعضهم بالفدية أو لإعتناقهم الإسلام فمثلا عام 1634 اعتنق الإسلام 8000 أسير من أصل 25000، حيث اندمجوا في المجتمع وأصبحوا فاعلين فيه (فئة الأعلاج) عن طريق خدماتهم الاجتماعية أو مهامهم الاقتصادية وكذا أعمال

الفلاحة[6]، وربما يكون اعتناقهم للإسلام للمعاملة الحسنة التي يعاملون بها من قبل أهالي المدينة والأتراك بعضهم لا كلهم، حيث يسمحون لهم بممارسة شعائرهم الدينية علنا حتى أن بعض أهل المدينة كانوا يأتون إليهم في أيام الفصح بالزرابي، وأدوات الزينة ويخترقون المدينة في موكب ديني ومعهم الرهبان
للموضوع مراجع:

Fray Diego de Haëdo : Topographie et histoire Générale d'Alger, traduit: MM. le Dr:Monnereau et A. Berbrugger, imprimer a valladlid:1870

وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تع وتق: عبد القادر زبادية، (دط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر : 1980 ،

سعيدوني ناصر الدين، الشيخ المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ، العهد العثماني،(ج 4)، (دط)، المؤسسة لوطنية للكتاب، الجزائر: . 1984

شالر ويليم، مذكرات ويليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1618 1824، تع و تق و تح:إسماعيل العربي، الشركة الوطنية، الجزائر :.

Jean – André Peyssonel: Voyage dans les Régences de Tunis & d'Alger, Présentation et notes de Lucette Valensi, Éditions la Découverte, Paris: 1987,

Godfrey Sir Fisher: Légende Barbaresque guerre, commerce et piraterie en Afrique duNord de 1415 à 1830 , (E'dition 2), Traduit Et Annoté: Farrida Hellal , Office des
publications universitaires ,Alger: 2000